الامير فخر الدين المعني

(تابع ما قبله)

مرّت اربع سنوات والامير فخر الدين يترضّى رجال الدولة بالهدايا والاموال فيقرونهُ في ولاية لبنان ويستعينون بهِ على مَن ناوأهم من الولاة او يترضّاهم غيرهُ من مناظريهِ فيتغيرون عليهِ ويولونهم على اطراف ولايتهِ او يرسلون الجيوش للايقاع بهِ الى ان كانت سنة ١٦٢٤ فتعهد وكيلهُ في الاستانة لباب الدولة بمئتي الف ذهب اذا تولى مولاهُ كل ولايات عربستان من حدود حلب الى حدود القدس فصدر الفرمان السلطاني بذلك منعماً على الامير بلقب سلطان البر الذي احرزهُ جدهُ فخر الدين الاول بانعام السلطان سليم . وجاء سلحدار السلطان بالفرمان العالي فالتقاهُ الامير بموكب عظيم واكرمهُ بثلاثة آلاف ذهب وادّى المئتي الف ذهب التي تعهّد بها وكيلهُ لباب الدولة ثم حشد اربعة عشر الفاً من العسكر وزحف بهم من بيروت الى البترون فحكار وهنالك طالب يوسف باشا سيفا باخمسين الفاً التي اخذ سكها من عمر باشا فادّاها يوسف باشا سريعاً فرحل الامير الى جبله فقدّم اهلها لهُ عشرين الفاً ونفقات العسكر مدى ثلاثة ايام اقامها عندهم ومضى من هناك الى جسر الشغر فوافاهُ اليهِ والي حلب وقدّم لهُ ثلاثين الفاً ذهباً والتمس منهُ تأمين الاهلين فاجابهُ على ان يؤدي جزية النصارى فلما ارتضى الوالي بعث الى حلب بعضاً من اعوانهِ لجبايتها

فيستفاد من هذا ان فخر الدين تولى زعامة الولاة ايضاً وان حلباً ودمشق والقدس من ضمن حكومتهِ الاّ ان تشرشل يقول في كتابهِ عن جبل لبنان ان ولايتهُ كانت على الجبال من حلب الى اورشليم اما جزية النصارى فليس لدينا من نبإٍ عن مقدارها الاّ ما ذكرهُ ڤولناي من انها لم تكن مما يدخل في حساب الالتزام بل تُرسل الى بيت المال رأساً ومعنى هذا ان الدولة العلية كانت تفرض على الولاة مالاً مقرراً ولم تكن الجزية التي يسمونها الخراج من الجملة فكان الوالي يوزع الاقطار على من يوليهِ الحكومات بدلٍ مسمًّى والدولة لا تعرف الاّ الوالي مسئولاً لديها بما عليهِ من المال كما ان الوالي يطالب الحكام كلاًّ بما عليهِ . واما مقدار الخراج فقد ذكر ڤولناي انهُ ثلاثة غروش وخمسة واحد عشر ولم يكن يلتزم بادائهِ موارنة لبنان ولا دروزهُ ولا النصيرية . وحسب ڤولناي عدد النصارى المضروب عليهم الخراج مئة وخمسين الفاً وعدّل ضريبتهم ستة غروش فالجملة تسعمائة الف قرش

ولما استوفى فخر الدين جزية النصارى في حلب اتجه صوب حماه ونادى بالامان فقدّم

اهلها لهُ خمسين الفاً ثم شنّ الغارة على عرب الموالي وطالبهم بنفقات عسكرهِ فاطاعهُ الامير مدلج الحياري وخالفهُ عرب الامير فياض فاغار عليهم فانفصلوا عن الموالي واوغلوا في القفر فطاردهم ثلاثاً وعشرين يوماً حتى عبروا النهرين فعاد عنهم واتى طرابلس وجمع نفقة لعسكرهِ من بلادها ثم امر ببناء قلعتين الواحدة تجاه حلب والاخرى فوق انطاكية ووضع فيهما عسكراً وزحف صوب بعلبك فنزل الحرافشة مشرقين فاطلق الامان للاهلين فاتوهُ مسلمين متعهدين بخمسة واربعين الف غرش وامر بترميم قلعة بعلبك واقام فيها حامية وبنى قلعةً في قب الياس وسلمها لجماعةٍ من عسكرهِ وقصد وادي التيم فالتقاهُ الامير احمد الشهابي بالاكرام وقدم لهُ نفقة عسكرهِ وجاءهُ اليها بعض المشارفة وجعلوا على انفسهم ضريبة سنوية سموها رمية ثم اتى حاصبيا فرحّب بهِ الامير علي الشهابي وقدم لهُ نفقةً وامر احد رجالهِ المسمى البكباشي احمد الكجك ان يلبث في وادي التيم حتى يقبض عشرين الف غرش خدمةً من الامير علي الشهابي ثم شرع يرمّ قلعة بانياس ويبني في صرخد

وفي غضون ذلك حدث غلاء في دمشق فارسل الدماشقة يشكون حالهم للامير ويستغيثون بهِ فارسل اليهم اربعة آلاف جملٍ تحمل غلالاً ثم جمع جمال حوران ودوابها وامر اصحابها ان ينقلوا القمح الى دمشق وامر ان يباع رطل الخبز بقطعتين ولما اتى مرجة دمشق خرج اليها كل الاهلين كباراً وصغاراً يشكرونهُ ويدعون لهُ . ثم استخدم الفاً من الانكجارية وطلب من كبراء البلد جزية النصارى الذين عندهم فاجابوهُ الى ذلك وارتحل عنهم الى قب الياس فدير القمر وشرع يرمّ اسوارها وامر ببني حصنٍ في المسيلحة

ولما رجع احمد الكجك من وادي التيم امر الامير بمحاسبتهِ فاستاء وخرج من خدمتهِ مغاضباً فذهب الى اسلامبول وخدم في باب الدولة وكان مقتدراً فارتقى وما كرّ عليهِ الزمن حتى صار وزيراً ولكن علياءهُ لم تبعدهُ عن الحقد على الامير بل ظلّ ينفث ضدهُ سم الوشاية والسعاية حتى اوغر عليهِ صدور رجال الدولة

فما مرّ يرى اللبيب ان فخر الدين نال اقصى امانيّ نفسهِ اذ اصبح وهو الحاكم الاعلى في بر الشام واليهِ مرجع امورها وقد اعتلى قنة المجد فلم يبقَ لهُ من منازع في طول البلاد وعرضها لان مناظريهِ راوهُ قد نال رضا الدولة فزاد بذلك منعةً وحولاً وغنى ويساراً ومن تمام حظهِ ان توفي يوسف باشا سيفا الذي ناصبهُ العداء طويلاً فزحف من بعلبك الى طرابلس عن طريق بشري واسرف في الفتك بالاهلين ونهب المدينة اربعين يوماً ثم شرع يرمّ الحصون ويبني المعاقل والقلاع ويزيد في الاذخار وحشد المال وتكتيب الرجال ومواثقة الكبراء

ورأى تهافت الناس على اعظامهِ وسمع اقوال الشعراء فيهِ فنفخته الكبرياء وليس بعيدًا ان يكون علوهُ قد حمل بعض المنكرين عليهِ من نظرائهِ او دفع الولاة المخلصين الذين سعى جوارهِ الى رفع تشكياتهم لابواب الدولة فوافق قولهم ما عرضهُ احمد الكجك من الشكاوي حتى رأى ارباب الحل والعقد ما اوجسوا منهُ خيفةً على البلاد لاسيما وانهُ استكثر من التحصين والتجهيز فتحفز للزحف عليهِ خليل باشا الصدر الاعظم سنة ١٦٢٦ وقدم حلباً بالعسكر السلطاني فلما سمع الامير ارسل عبد الله البكباشي اليهِ يعدهُ بمالٍ جزيل وبتسليم قلاع الحصن وصافيتا وسلمية وشعيمس والمرقب

هذا ما رواهُ العلاَّمة الدويهي غير ان من قرأ تاريخ السلطنة العثمانية سعى تلك الاونة يتضح لهُ ان خليل باشا لم يقصد محاربة المعنيين وانما زحف لقتال الفرس سنة ١٦٢٦ فلعلَّ مرور جيشهِ على تخوم بر الشام حمل الامير فخر الدين على ارسال عبد الله البكباشي بالهدية اليهِ جريًا على عادتهِ مع الوزراء وامراء الجيوش

ولقد مرَّ بنا ان احمد الكجك ارتقى في خدمة الدولة والذي علمنا انهُ احرز رتبة بكلربك وعين واليًا للشام سنة ١٠٣٩ هـ المعادلة لسنة ١٦٢٩ ثم عُزل عنها وعاد اليها سنة ١٠٤٢ هـ وفي صدرهِ على فخر الدين اشياء المعنا اليها فرأى على ما يُظن ان الامير لم ينثنِ عن الترميم والتحصين بل زاد في الابهة حتى بنى برج الكشاف في بيروت وخانًا للوحوش تمثلاً بالسلطان وشق عصا الطاعة واخذ كثيرًا من القلاع من ضواحي دمشق وتصرَّف في ثلاثين حصنًا وجمع من طائفة السكان جمعًا عظيمًا وبالجملة فقد بلغ مبلغًا لم يبقَ بعدهُ الاَّ دعوى السلطنة وذلك ما قالهُ المحبي وزاد المرادي ان بلغ عدد جيشهِ مئة الف. رأى الكجك ذلك فرفع الامر لباب الدولة وهو عارفٌ بما كان عليهِ السلطان مراد الرابع من البطش الذريع بمن يوجس منهُ خوفًا وانهُ لم يبقِ في طول السلطنة وعرضها من يخالف لهُ امرًا او يشذ عن سبيلٍ يرضيهِ فكيف يغض الطرف عن امير بلغت بهِ الجرأة حدًّا شبَّ بهِ عن طوقهِ. وقد نُقل عن الامير على ما روى جوانين انهُ كان ميالاً للدين المسيحي بل يُبطنهُ ويظهر الاسلام وانهُ اقتدى بالافرنج في اخلاقهم وعوائدهم لا يخشى نكيرًا بين قومٍ لم يألفوا الاَّ عادات الآباء والجدود. وقال غير هذا المؤرخ انهُ ابتنى قصرًا في بيروت بعد عودتهِ من ايطاليا وزيَّنهُ بمثل ما تحلَّى بهِ قصور هاتيك الديار من التماثيل والصور. كل ذلك زاد في طين تهمهِ بلَّةً وذكَّر ارباب الامر بما كان من مخالفتهِ البنادقة والتجائهِ الى بلادهم فحاكت هذه الامور جميعها في صدر السلطان حتى اذا بلغت شكوى الكجك مسامعهُ صدرت لهُ الاوامر بقتالهِ فبعث يستنفر توالي باشا والي حلب

وحكام طرابلس وغزة والقدس ونابلس والجا وعجلون وحمص وحماه . وجمع اعيان العلماء وكبراء العسكر في دمشق وقرأ عليهم الاوامر السلطانية فقابلها جميعهم بالطاعة وباشروا الاهبة وشرع امراء الاطراف يفدون الشام واحداً بعد آخر حتى اجتمع لفيفهم فخرج بهم سنة ١٠٤٣ (١٦٣٣) ثم استفز الامراء عليّاً التيني وحسين سيفا ومحمداً وحسين الحرفوش فلما جاؤه ولّى كلاً منهم على بلاده . وبلغ فخر الدين ذلك فجمع رجاله فبلغت عدتهم ستة وعشرين الفاً ولكنهُ فرّقهم فاخطأ في تدبيره ذلك انهُ ارسل ستة آلاف مع ابنهِ عليّ الى عجلون وثلاثة آلاف مع ابنهِ حسين للتحصن في قلعة المرقب وثلاثة آلاف اخرى الى بانياس

وفي أبان هذه الازمة وازوار الناس من الامير واحجامهم عن نجدتهِ وتنكرهُ حلفائهِ وظهور احقاد خصومهِ وقع في بلاد عجلون خلاف وقتال بين العرب وآل طربای فاتهم الامير علي المعني بذلك ووقعت الشحناء فالنفرة والقتال فاضطرّ ان يرحل الى بانياس

وعلم احمد باشا الكجك ان الشهابيين يحتشدون في وادي التيم فارسل عليهم فريقاً من رجالهِ يبلغون الثمانية آلاف نخافهم الاهلون وفروا هاربين فاحرق العسكر حاصبيا وبعض القرى ونزل في صخراء الخان الجديد فلما علم الامير علي نهض من بانياس واسرع النكرة فادرك عسكر الكجك ليلاً بالف مقاتل واشتبك الحرب حتى الصباح فاصابت عليّاً طعنة رمح القتهُ على الارض ولم يكن القوم عارفين بمن جرحوا الاّ ان جنديًّا من اهل دمشق كان من قبل في خدمتهِ فرّ عليهِ وهو جريح فنزل ليجزّ رأسهُ فعرفهُ الامير وقال لهُ خلصني ولك عليّ من المال ما تريد فقال لهُ ان بقاءك بعد هذه الجراح محالٌ ثم قطع رأسهُ واتى مخيّم احمد باشا فدخل عليهِ وهو نائم فنبههُ خدمهُ الموكلون بهِ ولما افاق قبّل يديهِ ووضع الرأس قدامهُ وقال لهُ هذا رأس رئيس القوم فلم يصدقهُ حتى جاء من عرفهُ وحقق لهُ الامر وضربت البشائر وارسل الباشا رأس الامير علي الى دمشق في جملةٍ من الرؤوس وادخلوها على اسنة الرماح وجيزوها بعدايام الى الابواب السلطانية

ثم جاء جعفر باشا بالاسطول السلطاني الى طرابلس فتحفز آل سيفا وجاءوا برجالهم الى بيروت فجاءها الاسطول ايضاً ثم ارسل الباشا عسكرًا الى المرقب فاستولى على قلعتها واسر الامير حسين بن فخر الدين وبعث بهِ الى خليل باشا في حلب

اما الكجك فدسّ لشوفيين قولهُ اني اذا كسرت وانا اجبر انظروا كم تؤدون لمولانا السلطان خدمةً وخرّج عسكرٍ وبعد ذلك أُولي عليكم من تختارون من ابناء فخر الدين واردّ العسكر عنكم فانطلى محالهُ على القوم وذهبوا الى الامير يسألونهُ الاجابة فقال لو دفعتم لهُ عشرين كرةً لما افادكم شيئاً ولكني ادفع المال لئلاّ اذا تمنعتُ تقولون لو ارتضى الامير لما وقع علينا حيف

ثم اتفقوا مع الكجك على مئة الف غرش خدمة للسلطان وخمسين الفاً للكجك وعلى احضار احد ابناء الامير ليتولى مكان ابيهِ فاتوهُ بالامير حسن اصغر بنيهِ فطيَّب قلبهُ وخلع عليهِ واتخذهُ كولدٍ لهُ فبدأ القوم يوردون المال حتى اذا استوفاه وقد علم ان عسكر الامير انفضَّ من حولهِ ولذلك فهو عازم على التحصن في قلعة ثيرون امر بقتل ابنهِ حسن وزحف بجيشهِ الى الشوف فارهقهُ وقتل كثيرين من الاهلين وولَّى عليهِ الامير علي علم الدين اليمني ثم حطَّ الحصار على قلعة ثيرون التي اختبأ فيها فخر الدين واحضر النقابين والقطاعين وامر ان يقطعوا صخرها من فوق الى تحت وكان ارتفاعهُ ثلاثين ذراعاً وافسد ماء عين الحلقوم التي اجراها الامير الى القلعة تحت الارض وذلك بروث البهائم وبالدماء ومعى الحيوان وكان للقلعة اسكف ورفرف من خشب متى رفعت تعذَّر الدخول اليها فكان الفعلة يقطعون الصخر الاعلى والعسكر يرفع الاحجار والكجك ينهض همتهم بالحث والعمل معهم كل ذلك على عزف الموسيقى وضرب الطبول في الليل والنهار حتى اقتربت اصوات الناقبين من سمع الامير وراى الخطر وشيكاً تتدلى من القلعة مع بنيهِ الثلاث ومديرهِ ابي نادر الخازن وبعض رجالهِ وسترهم ظلام الليل عن العيون حتى اتوا مغارة جزين اما حفظة القلعة فانهم استأمنوا للكجك في الصباح فاطلقهم واستولى على ما فيها من الذخائر وانتقل من هناك الى مغارة جزين وهو لا يدري ان فخر الدين مقيم فيها فعزم ان يترك بعضاً من عسكرهِ على حصارها وان يعود الى دمشق لاقتراب فصل الشتاء فحدث ان في تلك الليلة نزل احد مماليك الامير يتجسس الاخبار فقُبض عليهِ وجيء بهِ الى الكجك فسألهُ عن الامير فاجابهُ انهُ في المغارة ففي الحال امر بتشديد الحصار عليها واستحضر الفعلة ليقطعوها من الاسفل فاشتغلوا حتى صاروا على مسمع من القوم فنادوهم وانذروهم بوشك وضع اللغم ان لم يسلموا فلما يئس الامير من النجاة استأمن ومن حولهُ من رجالهِ فامر الباشا بحراستهِ واولادهِ منصور وحيدر وبلك الذين اسروا معهُ . ومما يؤخذ على المرادي انهُ غلط في روايتهِ ان اثنين فقط من ابناء الامير سلما معهُ وكذلك اخطأ بتسمية احدهما مسعوداً وانهُ قتل مع ابيهِ وبتسمية الآخر حسيناً والرواية التي اعتمدناها اصح لان حسيناً اسر عند فتح المرقب كما مرَّ

وكتب احمد باشا يستنزل الامير يونس اخا فخر الدين عن دير القمر على امانهِ فجاءهُ الى صيدا ومعهُ ابناءُ ملحم وحمدان فلما صاروا في حوزتهِ قال للامير يونس كم تدفع من المال فداء عنك وعن ابنيك فاطلقكم آمنين لانهُ لم يصدر بكم امرٌ سلطاني فوعدهُ الامير بمال جزيل لكنهُ قال ان المال تخبأ فاطلق واحداً منَّا يجيء بهِ اليك فاطلق الامير ملحماً فسار بهِ بعض الشوفيين

الى عجلون نزيلاً على امراء آل طرباي فلما علم الكجك بذلك حسبها خدعةً من الامير يونس فجسهُ مع ابنيهِ حمدان وعنبهما حتى ماتا ثم نهض الى الشام فاستصحب معهُ امراءهُ فدخل دمشق بموكبٍ عظيم وفخر الدين مقيد على فرس خلفهُ فانطلقت السن الشعراء في مدحهِ كما انطلقت من قبل بمدح الامير فمما قال الامير النجمي

وجاءنا بابن معنٍ بعد ما قُطعت صم الصخور عليهِ وهو معتزلُ
لم تغنِ عنهُ الحصون البيض اذ طلعت سود الرزايا عليهِ اليوم والقللُ
ولا الدلاص ولا ذاك الرصاص ولا تلك الجياد ولا العسّالة الذبلُ
ولا من العرب من كانت جرائرهُ تأتي عليهم ولا الكتّاب والرسلُ

وبعد ايام جهز الكجك رجلاً من اعوانهِ في امرة سريةٍ من الفرسان وبعثهم الى اسلامبول يخبرون الامير فخر الدين وينبهِ اليها الاَّ ان تشرشل يقول ان الامير لما أُسر أُرسل من غير تأخير الى جعفر باشا امير الاسطول فوضعهُ ومن معهُ في احدى البوارج وسافر بهم الى الاستانة غير ان هذه الرواية تخالف نص المحبي وما روى من الشعر والله اعلم

وفوق هذا فقد ذكر الرحالتان ميشو وبوجولا في الجزء الخامس من كتابيهما في الرسائل المشرقية صفحة ٥١٨ ان فخر الدين كان قد ملأ ميناء صيداء بالحجارة والتراب ليمنع اقتراب سفن الاسطول العثماني منها الاَّ انهُ يظهر ان ذلك لم يمنع تردد الاسطول اليها مدى زمن فخر الدين وبعدهُ. ثم طلب من آل طرباي ان يسلموا الامير ملحماً المتجيء اليهم ففعلوا فلما سار بهِ جماعة الوزير باتوا في خان الشيخ ففرَّ من على سطوح الخان واختبأ تحت معبر ماء قريب من الخان حتى رجع الجند من التفتيش عنهُ فخرج من تخبإهِ وسار الى قرية عرنا في جبل الشيخ واختبأ فيها

ووصل الامير فخر الدين وبنوهُ الى اسلامبول والسلطان يومئذٍ في اسكدار على ما قال المرادي فأُمر بهِ فسجن واخذ ولداهُ الى غلطه سراي وبعد حين حظي فخر الدين بشرف المثول لدى حضرة السلطان فاحتجَّ عن نفسهِ قائلاً اني ما جمعت الرجال الاَّ باوامر الوزراء والنواب ولا قتلت الاَّ العصاة على مولانا السلطان والقلاع التي فتحتها كانت للعصاة والتي بنيتها لدفع الاعداء وانما مهدت طريق الحج ومنعت العربان عن التعدي واديت الاموال الاميرية وايدت الاحكام الشرعية. فسرَّ السلطان بحجتهِ وعفا عنهُ وعن اولادهِ ولما رجع خليل باشا من حلب اصحب معهُ الامير حسيناً الذي أُسر من المرقب فاحبهُ واقامهُ في خدمتهِ

اما الامير علي علم الدين اخو الذي تولى الشوف فقد قبض على بعض وجهاء المعنيين

وقتلهم وسلب مقتنياتهم وذهب الى عبيه فنتك بالامراء التنوخيين ولم يبق منهم ذكرًا فهاج القوم من فعالهِ واكبروها واستنفروا الامير ملحمًا بن يونس المعني من مخبإهِ في عرنا حتى اجتمع اليهِ بعض المعنيين فنهض بهم الى الشوف فتقاطر اليهِ المريدون فزحف على الامير علي فجاءهُ هذا بجماعة من عسكر الشام وفيهم كتخدا احمد باشا فواقعهم فوق مجدل معوش وظفر بهم وقتل منهم عددًا من الرجال وفي جملتهم كاخية الباشا وانهزم علي علم الدين الى طرابلس ومنها الى الشام. وقدم على الامير ملحم الامير عساف سيفا واتفق معهُ على قتال علي سيفا واما علي اليمني فعاد معززًا بجند الشام فقبض على اربعمائة من رجال العرقوب وقتلهم عن آخرهم فخافتهُ الخوازنة والجبشية ونزحوا من كسروان فنهض الامير ملحم وطردهُ وحاربهُ في مواقع جمة ظفر بها كلها فجدَّد احمد باشا الكجك الشكوى الى اسلامبول مدعيًا ان اعمال الامير ملحم كانت بايعاز عمهِ فخر الدين وروى جوانين انهُ نسب اليهِ نهب صور وبيروت وصيداء وعكاء فخنق السلطان من فخر الدين اذ صدَّق الوشاية فيهِ فاصدر امرهُ بقتلهِ وقتل اولادهِ فقتلوا جميعًا في ٣ نيسان سنة ١٦٣٤ ولم يبقَ من ابناء فخر الدين الاَّ الامير حسين لانهُ كان في حمي خليل باشا

ومما ورد عن مقتل الامراء قول المرادي ان في شهر شوال سنة ١٠٤٣ امر السلطان وزيرهُ بيرام باشا بقتل فخر الدين فاخذهُ الوزير من حبس البستانجي باشي الى تجاه محل الوحوش المسمى ارسلان خان ورمى رقبتهُ ثم طرح جثتهُ في آت ميدان وانهُ قتل ابنهُ مسعودًا خنقًا لانهُ راشد وطرح جثتهُ في البحر

الاَّ انَّ سنة ١٠٤٣ هـ تعادل سنة ١٦٣٣ م والمتفق عليهِ ان قتل فخر الدين كان سنة ١٦٣٤ والدليل على هذا ظاهر من قول العلاَّمة الدويهي ان زحف الكجك لقتالهِ كان في شهر ايلول سنة ١٦٣٣ وبما انهُ قُتل في نيسان فمن الضروري ان يكون ذلك سنة ١٦٣٤ وليس سنة ١٦٣٥ كما قال جوانين

ولا يصح بنا ان نبخس فخر الدين حقهُ من الوصف فقد كان شجاعًا باسلاً شهدت لهُ فعالهُ بعلو النفس وطموحها الى العلياء تترى صاحب اخبار الاعيان يذكر من اقدام الامير ما يشهد لهُ بالبسالة واقتحام الاخطار غير متهيب ولكم لهُ من وقعة كان جيشهُ فيها على وشك الادبار فعاد بصولتهِ ظافرًا وناهيك بما رواهُ من ان احمد باشا الكجك كان يخشى شجاعتهُ لما رأى من فعالهِ وكأن الشجاعة كانت حلية هذه الاسرة فقد ذكر المحبي اثناء كلامهِ عن مقتل علي بن فخر الدين انهُ لم يعلم احدٌ ان الامير علي بينهم ولو علموا لما ثبت احدٌ لكبر صيتهِ

ومع ان فخر الدين كان فتًا كآبائهِ لم يكن كالكثيرين من رجال الحرب الذين لا تأخذهم

الرأفة بالمسالمين والضعاف بل كان يؤاسي المحتاجين ويبرهم ألا تراهُ كيف نهض لاعانة الدماشقة يومَ مسَّهم الجوع وكيف كان يقدم على اسعاف المستغيثين به ولو ادّى به اسعافهم الى القتال

وناهيك به من رجل عَلَّمَهُ التسود في لبنان ان يتخذ من النصارى انصارًا واعوانًا وان يحكم فيهم بالقسط ولا يحيف عليهم في شيء حتى استراحوا في ايامهِ وآمنوا وعمروا الكنائس والاديار وطاب لدعاة الدين حتى من الافرنج الكنى في لبنان ولعلَّ هذا التساهل هو ما حمل السعاة به على رميهِ بالتنصر والمروق من دين آبائهِ

وقد وصفهُ تشرشل بالنشاط والاقدام والذكاء وانهُ لو وافقتهُ الاحوال لاحسن الى قومهِ وقال ان عقلهُ كان كبيرًا وفيهِ حلمٌ يحبب اليهِ قومهُ ويجعلهُ موضع ثقتهم وانهُ لما فوضت الحكومة اليهِ الولاية سعى جهدهُ في مصلحة بلادهِ وعامل الناس بالمساواة والعدل

وكانت لهُ مشاركة في الادب بدليل يتبين من الشعر قالها فيهِ عطاء الله المسلوني المصري وهما

يراعك ان ابكيتهُ ضحك الندى وعضبك ان اضحكتهُ بكت العدى
فسيمة هذاك اعندى قطُّ رأسهِ وسيمة هذا قطع رأس من اعندى

وكأني بهِ اراد نشر المعارف بين قومهِ اهتمامًا بشؤونهم اذ ورد انهُ اقترح على المطران جرجس ابن عميرة الاهدني وضع كتابٍ في هندسة البناء باللغة العربية فالَّفهُ ولكننا لسنا على يقنٍ من ان الامير اراد بوضع هذا الكتاب افادة الناس والاَّ لاقترح على علماء ذلك العصر وادبائهِ تأليف كتبٍ اخرى اكثر فائدةً لوطنهِ من الهندسة لان هذي من الكماليات وقبل الاضطرار اليها درجات من الحاجيات وانما يغلب على الظن انهُ اراد الكتاب ليتخذهُ دستورًا في تشييد بناياتهِ من قصورٍ ودورٍ ومعاقل وحسبك ما ذكرنا من آكثارهِ من بناء القلاع وترميم قديمها ولعل قصرهُ الذي بناهُ في بيروت مضارعًا لقصور مضيفيهِ آل مديشي في ايطاليا كان عقيب تأليف هذا الكتاب على ان مؤلفهُ كان من متخرجي مدرسة رومة العظمى والظاهر مما آثر المؤرخون ان اهتمام فخر الدين بالبناء لم يكن مقصورًا على بيروت ودير القمر بل عمَّ مواضع اخرى فمنها القصر البديع الذي شادهُ قرب صيداء وبقي بعد عينٍ اثرٌ نوَّه بذكرهِ الرحالتان الفرنساويان ميشود وبوجولا في كتابهما[1]

ولهُ في صيداء ايضًا خان منسوب اليهِ هو اعظم خاناتها وكان يأوي اليهِ الفرنساويون الذين نزلوا في صيداء في تلك الايام للتجارة ومنهم دارفيو D'Arvieux. قنصلهم المشهور بمؤلفهِ عن احوال البلاد

(1) Michaud et Paujolat; correspon. d'Orient, Vol. VII, page 331.

اما ما زعمهُ دارڤيو وڤولناي ولامرتين وتشرشل وغيرهم من ان فخر الدين غرس غاب الصنوبر في ضاحية بيروت فلاصحة لهُ بدليل ما آثرهُ العلاَّمة المطران يوسف الدبس في كتاب سفر الاخبار (ص ٢٥) عن رحلة المسيو ميسلن وما حققهُ الاب لامنس في السنة الاولى من مجلة المشرق صفحة ٩٣٩ من ورود ذكر هذا الغاب في القصيدة الثانية والاربعين من قصائد الشاعر اليوناني نونوس الذي نبغ في القرن الرابع للميلاد ومن ذكرهِ في جغرافيا الشريف الادريسي المتوفى في الربع الاخير من القرن الثاني عشر ومن التنويه بهِ في مؤلف وليم الصوري وصالح بن يحيي التنوخي صاحب تاريخ بيروت كل ذلك يدل على وجود الغاب قبل زمن فخر الدين ويحمل على الظن بانهُ ربما كان ذلك الامير قد بذل في حفظهِ شيئاً من عنايتهِ او زاد على اغراسهِ بعضاً في المواضع الخالية كما فعلت الحكومة المصرية في زمانها

فجديرٌ بمن كانت هذه صفاتهُ من الامراء ان تزدحم على بابهِ الشعراء وان يمدحوهُ بمختارات القصائد فقد آثر الحجي انهُ اطلع على مجموعةٍ من الشعر تبلغ المئة صفحة قيلت كلها في مديحهِ

ولما ضُبطت املاك فخر الدين انعم السلطان بها على احمد باشا الكجك فشرع هذا ينقب عنها ويبحث عن انصار المعنيين لينكل بهم فاخفى كثيرون من الكبراء حتى لم يستطع اساقفة الطائفة المارونيَّة ان يجتمعوا في اليوم التاسع لوفاة البطريرك يوحنا مخلوف الاهدني على مألوف عادتهم

جرجي يني

منزلة الشعر من التاريخ

﴿ ٣٦ ﴾ الطلاق

وكانت سنَّة الطلاق معروفة في الجاهلية قال زيد بن عمرو بن نفيل

تلك عرسي تنطقان على عم ... دٍ الى اليوم قول زور وهُتْر[1]
سالتاني الطلاقَ ان رأتا ما ... لي قليلاً قد جئتماني بنكر

وقال عبدالله بن العجلان

طلقت هندًا طائعًا ... فندمت عند طلاقها
فالعين تذرف دمعة ... كالدرّ من اماقها
خود رداح عفة ... ما الفحش من اخلاقها

(١) الكذب